

الاستجابة الجمالية في نقد السيرة الذاتية السعودية: جماليات تلقي الصورة السردية

مريم إبراهيم غبان (*)

جامعة الملك عبدالعزيز

(قدم للنشر في 1439/9/28هـ، وقبل للنشر في 1440/3/18هـ)

ملخص البحث: تسعى هذه الدراسة إلى معاينة مستوى الاستجابة الجمالية في نقد السيرة الذاتية السعودية، لمقاربة العلاقة بين النص والقارئ، وهي زاوية بحثية مهمة لأنها تفتقر إلى إمكانية نقل أبحاث (الصورة السردية) من حقل الرواية إلى حقل السيرة الذاتية. وقد وضعت الدراسة لنفسها إطاراً محدداً، هدفه استجلاء الأبحاث التي تناولت الصورة السردية، كموضوع رئيس أو تعرضت له - جزئياً - بحكم أن الصورة السردية أداة تشكيل المكان والأشياء والشخصيات المتفاعلة مع المشاهد السردية، لذا كانت هذه الدراسة تتطلب فحص المعالجة النقدية للصورة في ثلاثة مسارات؛ الأول: يتعلق بصورة المرأة، والثاني: بصورة المكان، والثالث بصورة المجتمع في السيرة الذاتية السعودية. هذا الاختيار تم بناء على ما توفرت عليه الدراسة من أبحاث تتعلق بالصورة في أدب السيرة الذاتية السعودية، لتقديم مقاربة في نقد النقد تتضمن جهات عدة تتعلق بضبط مفهوم الصورة السردية، ووظائفها، والكشف عن الآليات والجماليات والمرجعيات المتحكمة في تلقيها.

كلمات مفتاحية: الصورة السردية، صورة المرأة، صورة المكان، الاستجابة الجمالية، جمالية التلقي، السيرة الذاتية.

The Aesthetic Response in the Criticism of the Saudi Biography: The Aesthetic Perception of the Narrative Image

Maryam Ibrahim Ali Ghabban (*)

King Abdulaziz University

(Received 12/6/2018, accepted 26/11/2018)

Abstract: This study seeks to explore the level of the aesthetic response in the criticism of the Saudi biography to approach the relationship between the text and the reader. It is a significant research field because it assumes the possibility of transferring the research of (the narrative image) from the area of narration to the area of biography. The study draws for itself a specific framework whose goal is to explore the research that dealt with the narrative image as a main subject, or handled it partially, on the account that the narrative image is the tool of formulating the place, things and interactive characters with the audience. Hence, the direction of this study requires the examination of the critical analysis of the image in three tracks: the first is related to the image of women; the second is related to image of the place and the third is related to the image of the society. This selection is made on the basis of the previous available research that concerns the image in the literature of Saudi biographies in order to present an approach for the study that includes several aspects related to the concept of the narrative image, its functions and highlighting the mechanisms, the aesthetics and the references controlling its reception.

Keywords: narrative image – women's image – place image – aesthetic response – aesthetics of reception – biography.



DOI:

(* Corresponding Author:

Associate Professor, Dept. of General Courses, Faculty of Arts & Humanities, King Abdulaziz University, PO Box: 80211, Postal Code: 21589, Jeddah, Kingdom of Saudi Arabia.

(* للمراسلة:

أستاذ مشارك، قسم المواد العامة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، ص ب: 80211، رمز بريدي: 21589، المدينة جدة، المملكة العربية السعودية.

e-mail: maaghabban@kau.edu.sa

مقدمة

حَقَّقَ التَّأْلِيفُ النِّقْدِيُّ فِي السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ تَقْدِماً كَمِيّاً وَنَوْعِيّاً، أَدَّى إِلَى اتِّسَاعِهَا لِقَضَايَا مُتْرَامِيَّةِ الْأَطْرَافِ مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِزَاوِيَةِ مَعْرِفِيَّةِ بَبْلِيُوجْرَافِيَّةِ تَهْتَمُ بِرِصْدِ نَتَاجِ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ إِبْدَاعًا وَنِقْدًا (الْحَيْدَرِي، 2008م) وَبَعْضُهَا سَلَكَ مَسَلَكًا تَارِيخِيًّا يَتَّبِعُ نَشْأَةً وَتَطَوُّرَ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ، وَبَعْضُهَا اعْتَنَى بِمَكُونَاتِ السَّرْدِ، وَأَسَالِيْبِ الْخُطَابِ وَتَوَجُّهَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَفِي الْغَالِبِ لَا يَخْلُو بَحْثٌ مِنْ مَعَالِجَةِ مَنَهْجِيَّةِ لِمَفْهُومِ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ وَدَوَافِعِ كِتَابَاتِهَا وَعِلَاقَتِهَا بِالْأَجْنَاسِ الْآخَرَى لَا سِيَّمَا الرِّوَايَةِ.

وَبالنَّظَرِ إِلَى هَذَا الْكَمِّ مِنَ الْكِتَابَاتِ النِّقْدِيَّةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْمَنَهْجِ وَالنَّشْأَةِ وَالتَّطَوُّرِ، وَقَضَايَا الْأَجْنَاسِ، وَبِمَقَارِنَتِهَا بِمَا حَقَّقْتَهُ أَبْحَاثُ الصُّورَةِ فِي النِّقْدِ الرِّوَايِيِّ. نَدْرُكُ أَنَّ نِقْدَ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ أَقْلُ الْكِتَابَاتِ النِّقْدِيَّةِ اتِّصَالًا بِنِقْدِ الصُّورَةِ السَّرْدِيَّةِ، لِذَا فَإِنَّ مَا يَقْدِّمُهُ هَذَا الْبَحْثُ يَشْكَلُ إِضَافَةً ذَاتَ قِيَمَةٍ فِي مَجَالِهِ؛ لِأَنَّهُ يُوَجِّهُ أَبْحَاثَ نِقْدِ النِّقْدِ إِلَى النُّوَاحِي الْجَمَالِيَّةِ فِي نِقْدِ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ، خِلَافًا لِمَا هُوَ سَائِدٌ.

يَمَكِّنُ الْإِشَارَةَ إِلَى أَبْرَزِ الدِّرَاسَاتِ النِّقْدِيَّةِ الَّتِي اعْتَنَتْ بِنِقْدِ الصُّورَةِ السَّرْدِيَّةِ فِي السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ فِيهَا يَلِي :

1. دِرَاسَةُ عَائِشَةَ الْحَكْمِي (السَّيْرَةُ الذَّاتِيَّةِ عِنْدَ أَدْبَاءِ الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ)،

فَقَدْ قَدِّمَتْ الدِّرَاسَةُ اسْتِقْصَاءً جَيِّدًا لِأَبْعَادِ الْبِيئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَانْعِكَاسِهَا عَلَى حَيَاةِ الْكُتَّابِ، مَوْظَفَةً مِصْطَلَحَ الصُّورَةِ فِي أَكْثَرِ مَنْ مَبْحَثٍ لَعَلَّ أَبْرَزَهَا (صُورَ الْحَيَاةِ فِي الْحَارَةِ، قِيَمٌ وَعَادَاتُ الْمَجْتَمَعِ، عِلَاقَةُ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ)، وَالْعُنَاوِينَ السَّابِقَةَ تَشِيرُ إِلَى اتِّسَاعِ مَفْهُومِ الصُّورَةِ لَدَى الدِّرَاسَةِ.

2. دِرَاسَةُ بِسْمَةَ الْقِثَامِي (الْمَرْأَةُ فِي السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ)، رَصَدَتْ الدِّرَاسَةُ مُجْمَلِ خِصَائِصِ مَكُونَاتِ صُورَةِ الْمَرْأَةِ فِي السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ مِنْ جِهَةِ عِلَاقَتِهَا بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالشَّخْصِيَّةِ، وَمَدَى تَأْثِيرِهَا فِي مَسِيرَةِ حَيَاةِ الْكَاتِبِ. وَقَدْ أَشَارَتْ الْبَاحِثَةُ فِي الْمَقْدِمَةِ أَنَّ الدِّرَاسَةَ مُتَّخِصَةً فِي نِقْدِ صُورَةِ الْمَرْأَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ تُضْمِنِ الْمَفْهُومَ فِي الْعُنْوَانِ، وَلَمْ تُمَهِّدْ لَهُ بِتَنْظِيرٍ عِلْمِيٍّ دَقِيقٍ يُجَدِّدُ مَفْهُومَ الصُّورَةِ وَأَبْعَادِهَا وَفَقَ مَا تَمَّ تَنَاوُلُهُ فِي الدِّرَاسَةِ.

3. دِرَاسَةُ جِرَازِ الشَّمْرِي (أَجْنَاسِيَّةِ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ)، هَذِهِ الدِّرَاسَةُ تَعَدُّ إِضَافَةً جَيِّدَةً فِي مَجَالِ نِقْدِ السَّيْرَةِ الذَّاتِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا قَدِّمَتْ دِرَاسَةً مُتَوَازِنَةً لِأَغْلَبِ الْجَوَانِبِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنِقْدِ السَّيْرَةِ، مِنْ جِهَاتٍ عَدَّةٍ، تَارِيخِيَّةٍ، اجْتِمَاعِيَّةٍ، فَنِيَّةٍ، مُؤَظَفَةً الْمَكْتَسِبَاتِ النِّقْدِيَّةِ الْحَدِيثَةَ، الَّتِي ظَهَرَتْ فِي النِّقْدِ الرِّوَايِيِّ. مِنْهَا - عَلَى سَبِيلِ

هذا التلقي وأفق انتظاره. من هنا تظهر أهمية هذا البحث، والقيمة البحثية التي يضيفها من عدة زوايا، لعل أبرزها توجيه الأنظار النقدية إلى جماليات التلقي في السيرة الذاتية، خاصة وأن أغلب الأبحاث التي قُدمت في نقد السيرة ركزت على قضايا النشأة والتطور، وعلاقة السيرة الذاتية بالرواية.

ومن الإنصاف الإشارة إلى دراسة (صالح الغامدي، 2013م) المعنونة بـ (كتابة الذات: دراسات في السيرة الذاتية)، لأنها خصصت فصلاً مستقلاً لقضايا نقد النقد في السيرة الذاتية السعودية، مشيرةً في الماحة سريعة إلى مناهج النقد في السيرة الذاتية، وأبعاده النظرية، إلا أنها لم تتطرق لموضوع الصورة السردية في السيرة الذاتية. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن المنحى الذي سلكته دراستنا، جاء بناءً على استقراء تام، وتحليل دقيق لموضوعات نقد النقد في السيرة الذاتية السعودية، الأمر الذي مكّنها من وضع تصنيف دقيق للمنجز النقدي، ومن ثم صياغة فرضية محددة، رُسمت حدودها من خلال سؤال مركزي يدور حول جمالية تلقي الصورة السردية في نقد السيرة الذاتية السعودية، لبيان مدى الحاجة إلى دراسة الموضوع وأهميته في تطوير وتوسيع قضايا النقد، بالإضافة إلى حدائته وقلة الدراسات المنجزة فيه قياساً إلى ما قُدم من أبحاث تتناول جهود النقد والتأريخ لنشأة وتطور السيرة الذاتية

المثال - دراسة العتبات، تحليل مكونات السرد، دراسة وظائف الخطاب، آليات التناص وأبعاده الجمالية والموضوعية.

4. دراسة عبد الله الحيدري (السيرة الذاتية في الأدب السعودي)، وهي من أول الدراسات التي تصدرت لموضوع السيرة الذاتية مُستفيدةً في الحديث عن مفهوم السيرة، وعوامل النشأة والتطور، والخصائص الفنية، كما قُدمت فصلاً خاصاً عن صورة المكان، هو إضافة مميزة اعتمدت هذه الدراسة عليها في الكشف عن جمالية تلقي الصورة السردية في السيرة الذاتية السعودية.

كان هذا العرض بمثابة لمحة موجزة عن أبرز الجهود النقدية التي تطرقت لنقد الصورة في السيرة الذاتية، مُحققةً بذلك نقلة نوعية، وإضافة نقدية جديرة بالبحث والتحليل في مجال فحص نوعية الاستجابة الجمالية لأبحاث الصورة في السيرة الذاتية.

وأما في سياق نقد النقد، فلا نكاد نقف على دراسة متخصصة في هذا المجال، مع ظهور دراسات مُتخصصة في الموضوع لدى بعض الباحثين السعوديين، كما نجد في نقد كتاب الأيام لطفه حسين وهي دراسة قُدمتها الباحثة منال آل فهميد بعنوان (تلقي كتاب الأيام لطفه حسين في النقد العربي) وفيه ركزت الكاتبة على جماليات

وقد أشاد النقادُ بعددٍ من السير لما توفرت عليه من أصالة وتميز، ولما اتسمت به من روحٍ شعريّةٍ قويّةٍ وقدرةٍ تأمليّةٍ، تغوصُ في أعماقِ الظواهرِ النفسيّةِ والحالاتِ الوجدانيةِ مُتقصيّةٍ أدقِ التفاصيلِ بأسلوبٍ سلسٍ رصينٍ، وحسٍّ مُرهفٍ يعكس رؤية الكاتبِ وتصوره للكون والحياة من حوله، في تصويرٍ جماليٍّ مشحونٍ بالدلالاتِ الفكريةِ؛ من هذه السير سيرة غازي القصيبي، وعزيز ضياء، والسباعي (الزهراني، 2013م، ص: 21) هذا يفسح المجال لفحص إمكانات هذا التناول الحيويّ بعيداً عن قضايا التجنيس والسؤال عن كتابة الذات، إلى قضايا أكثر عمقاً تتصلُّ بأساليب السرد والتخييل.

ومن هنا جاءت مهمة هذا البحث لاستجواب الفكر النقديّ في مجال بلاغة الصورة السردية، الأمر الذي من شأنه تقديم مقارنة في نقد النقد يذهب الاهتمام بها إلى معالجة السيرة الذاتية في زاوية محددة، ترتبط بالقضايا المطروحة في سياق الاستجابة الجمالية للصورة السردية.

هذا المنحى في التناول يدفع الدراسة إلى موقع متوسط بين النقد ونقد النقد بحيث يمكن إجمال أهدافها فيما يلي:

1. تقييم الجهود النظرية والإبستمولوجية، بالتركيز على الجانب العلمي والنظري للجهود النقدية من خلال فحص المفاهيم المتداولة في النقد ونقد النقد.

في الأدب السعودي، وكذلك البحث في القضايا الأجناسية المتعلقة بالموضوع نفسه، وإشكالية كتابة الذات التي استفاض معظم الباحثين في الكشف عن جوانب وأبعاد تناولها في النقد. ومع أنّ جدلية (الحقيقة والخيال) من المراكز الأساسية لدراسة الصورة السردية، إلا أن تداولها في نقد السيرة الذاتية ظلّ مرهوناً بالميثاق الذي تبنى عليه من جهة (الواقعية والصدق) أي مدى التطابق بين لغة السرد وموضوعها.

وبغض النظر عن طبيعة الآراء التي باشرت هذه الزاوية، وإلى أي مدى تباينت أو تقاربت فيما بينها من جهة القول بضرورة التزام كاتب السيرة المصدقية التامة، أو القول بأن التعبير عن الذات كتابةً أدبيةً لا يمكن أن تتجرد تماماً عن الخيال، وأن المسألة نسبية من كاتب لآخر، لذا تتطلب الصدق الواقعيّ إلى جانب الصدق الفنيّ (آل مريع، 2013م، ص: 124) إلا أن هذا المستوى من التعبير لا يتوفر إلا مع كتابة أصيلة وثقافة واعية تُعيد صياغة وقائع الحياة وتمثيلها عن طريق اللغة.

ولعل في هذه السمة ما يُؤهل كاتب السيرة الذاتية للتعبير عن رؤيته للعالم من منظورٍ شموليٍّ يتجاوز النظرة الذاتية الضيقة إلى بُعدٍ إنسانيٍّ شموليٍّ يعبر عن المشاعر الإنسانية كالحب والجوع والخوف، وهي قضايا إنسانية تعكس نظرة الإنسان وتصوراتهِ للحياة.

يلعب دوراً بارزاً في تشكيل الخلفية الجمالية التي يعبر بموجبها القارئ عن تلقي نص ما.

وفقاً لما سبق يحسن بنا الوقوف عند أبرز تعريفات الاستجابة الجمالية، للإحاطة التامة بحدود المفهوم والمحددات اللازمة للتعامل مع النص في حدوده.

عرّف (ريد، 1975م، ص: 71) الاستجابة الجمالية بأنها: «استعداد للإحساس باكتمال حادثة ما في خبرتنا باعتبارها صحيحة ومناسبة، فتشكل ما أطلق عليه اسم العامل الجمالي في الإدراك الحسي». وهذا يقتضي أنها سلوك يمتد في معظم استجاباتنا وينعكس في إحساسنا بالجمال بشكل ملحوظ يؤدي إلى تقبل موضوع الجمال أو رفضه، من خلال ما يُثار فينا من أحاسيس عديدة مثل الإحساس بالسرور، والنشوة، والمتعة... إلخ

أما (ستولنيتز، 1981م) فيعرفها بأنها: تجربة تقبل فيها موضوعاً ونستمتع به لذاته فحسب فلا نستخدمه أداة لأغراض علمية، ولا نسعى إلى استخلاص معرفة منه ولا نهتم بنتائجه من حيث الخير والشر (ستولنيتز، 1981م، ص: 577). كما عرّفها (عبد المجيد، 2001م) بأنها: عملية مركبة تشتمل على مقارنات، ومميزات، واختبارات بين البدائل الجمالية المتاحة، يتم التعبير عنها من خلال تعبيرات لفظية أو اختبارات سلوكية معينة (عبد المجيد، 2001م، ص: 72). وهي عند (أحمد،

2. تقديم قراءة تحليلية لنقد النقد، تقف على طبيعة العلاقة بين النص والناقد، ومن خلالها نقف على توجهات الناقد وآليات القراءة النقدية.

3. تحقيق استجابة جمالية، تكشف الأبعاد الفنية للصورة السردية في السيرة الذاتية، وهي إضافة تتوخى الدراسة فيها الحذر من الخروج عن منحنى البحث واختصاصه في مجال نقد النقد.

الاستجابة الجمالية: تلقي الصورة السردية مدخل نظري ودراسة تطبيقية .

أ- نظرية الاستجابة الجمالية في ضوء تلقي الصورة السردية :

بمراجعة تعريفات الاستجابة الجمالية لدى عدد من الباحثين، نجد أنها تتأثر بجملة من المؤثرات، وفي الغالب تشكل حالة سيكولوجية لها طابع مميز وخصائص محددة قابلة للدراسة، لكن موضوعها لا يزال قيد البحث، ولم يحسم بعد، وكل ما طرقت فيها قابل للإثبات أو الدحض، لأنها تعبر عن وجهات نظر قد تتفق أو تختلف إلى حد التعارض. ولعل أبرز ما يركز عليه المتخصصون البعد الوجداني؛ لأنه هو المؤثر في الاستجابة الجمالية؛ فهو يتضمن القيم الشخصية، والاتجاهات والميول والدوافع، وخصائص الشخصية، وكل ذلك

الحبكة السردية.
ومع كثرة الأبحاث في بلاغة الصورة الروائية
السعودية خصوصاً، الأمر الذي يجعلها كافيةً
لتبوء مكاناً مناسباً في ميدان نقد النقد الأدبي، وما
قُدّم من أبحاثٍ في هذا الميدان، مناسبٌ لإجراء
دراسة فاحصة، تخلص إلى الملمة نتائج أبحاث
كثيرة تناولت الصورة. إلا أن نطاق هذا البحث
يتطلب تخصيص الحديث عن الصورة في نوعها
السردية، المحدد بالسيرة الذاتية، فما الذي يميزه
عن التناول في المجالات السردية الأخرى؟
وهل تتأثر الصورة بالخصائص المميزة لسرد
السيرة الذاتية؟

ممّ تستقي الصورة السردية حدودها العامة،
وما المعطيات المعرفية والأدوات النقدية التي تحدد
إطار تناولها في السيرة الذاتية؟
للإجابة عن هذه التساؤلات تمت معاينة
الدراسات النقدية التي باشرت الموضوع، ضمن
شبكة من الصور الكلية والجزئية التي شكلت
انطباعاً عن طبيعة الصورة السردية في جنس
السيرة الذاتية، اعتماداً على مُرتكزاتٍ نقديةٍ
مُحددة؛ فقد عمل كلُّ باحثٍ بطريقته الخاصة في
التناول والطرح والتشريح والاستنتاج، وفهم
الأبعاد النفسية والاجتماعية لموضوع الصورة تبعاً
للإطار المحدد لها، الأمر الذي يتطلب التساؤل:
هل تغيرت بنية وملامح الصورة ودلالاتها من
باحثٍ لآخر، ومن موضوعٍ لآخر؟

2008م) القدرة على تنظيم إدراك المتلقي للجمال
داخل أطر استيطيقية يحملها المتلقي في مجاله
النفسي، ولهذا فهو يرى أن الاستجابة للجمال في
الفن كامنة في كل شخص، وقابلة للنمو (أحمد،
2008م، ص: 199).

مما تقدّم من تعريفات يمكننا فهم الاستجابة
الجمالية ضمن فعاليات العلاقة بين القارئ
والنص؛ لأن دراسة النص الأدبي من زاوية جمالية
تتعلق بالصورة السردية يتطلب التركيز على
التأثير الذي يدرك في عملية القراءة ويتجاهل
المؤلف.

من زاوية نظريّة أخرى جرى تعريف
الصورة السردية عمومًا على أنها «نقل معطيات
الواقع الخارجي بواسطة اللغة» (أنقار، 1994م،
ص: 13) لكن الصورة السردية لها روابط
ذهنية متداولة في الفلسفة وعلم النفس، وروابط
دلالية أخرى ترتبط بالرمز والأسطورة. كما أن
لها علاقة بالحقل البلاغيّ فيه تتحقق فنيتهما
بالمفهوم الشامل للصورة اللغوية، وهذا مما
يقتضي تعميق البحث الأسلوبي بها. أي بالنظر
إلى وظائفها التعبيرية، وموضوعاتها وروافدها،
وعناصرها، وأنواعها، ودلالاتها لدى كل جنس
أدبي، لأننا لا نقصد الصورة بمفهومها البلاغيّ
الضيق، بل بمفهوم شاملٍ من حيث هي صورة
تخييلية إبداعية وإنسانية تشكل في باطن السرد،
وتفاعل مع مجموعة من المكونات التي تشكل

السابقتين بالإضافة إلى دراسة (الحكمي، 2015م). وسوف يتم تناول وفقاً لهذا التوزيع.

ب: موضوعات الصورة في السيرة الذاتية :

1- صورة المرأة في نقد السيرة الذاتية السعودية: خصوصية النوع وإشكالية الحضور: إن الأبحاث التي تطرقت إلى صورة المرأة في السيرة الذاتية السعودية، باشرت الموضوع ضمن مقتضيات البحث في قضايا السيرة بصفة عامة من منظور نقدي اجتماعي. ماعدا دراسة الباحثة بسمة القثامي (المرأة في السيرة الذاتية السعودية)، فقد تخصصت في الموضوع.

حيث قُسمت الدراسة السابقة إلى فصلين رئيسين؛ الأول وفيه مبحثان: أحدهما، يتناول (تشكلات صورة المرأة) مبرزاً أهم الشخصيات النسائية المؤثرة في شخصية الكاتب، منوهة إلى شعوره نحوها، وتطلعته إليها، محددة خمسة وظائف هي: الأم، الجدة، الابنة، الزوجة، ونساء أخريات من عمّة، وأخت، وجارة، (القثامي، 2014م، ص: 11). وأما المبحث الثاني في هذا الفصل؛ فيتناول القضايا الاجتماعية المتعلقة بالمرأة (التعليم، الطلاق، العنوسة، الزواج، التقاليد والانفتاح) ومن خلال هذا التقسيم تم رصد جوانب معاناة المرأة. أما الفصل الثاني، فقد جاء معنياً بالبناء الفني للسيرة الذاتية، مجملاً أبرز خصائصها الجمالية، وأبعادها الدلالية.

أم أن النتائج تتلاحم لتشكّل جسداً واحداً يحمل سماتٍ وخصائصَ مشتركة؟

لكي نقرر هذه الحقيقة علينا معالجة الموضوع في ضوء توجهاتٍ عدة تُطال المناهج والمفاهيم النقدية، وتوجهات النقد، والعلاقة بين النص والناقد.

عند فحص المنجز النقدي لأبحاث الصورة في نقد السيرة، نجد أنه ينحصر في مجالات تتعلق بعناصر السرد كالشخصية والزمان والمكان وكل ما يتعلق بالفضاء السردى من أثار وعادات وتقاليد.

ولئلا يتشعب البحث، تمّ حصر نطاقه في ثلاثة مواضيع أولها: يتعلق بصورة المرأة، وهي الأكثر تناولاً من قبل الدارسين، وقد ظهرت دراسة كاملة متخصصة في الموضوع، قدّمتها بسمة القثامي في كتاب (المرأة في السيرة الذاتية، 1435هـ)، أما الثاني فهو: صورة المكان، وهي دراسة وحيدة، قدمها عبد الله الحيدري في كتابه (السيرة الذاتية في الأدب السعودي، 2003م). والثالث: صورة المجتمع السعودي من خلال أبحاث موضوعات الصورة الذاتية (العادات والتقاليد، الاحتفالات والأعياد، الملابس والأطعمة... إلخ، والموضوع الأخير هو الأكثر وروداً على ألسنة الدارسين، فلا تكاد تقف على دراسة نقدية واحدة، إلا وتجد فيها تفصيلاً لقضايا المجتمع في السير الذاتية. يمكن أن نلاحظ ذلك في الدراستين

تلك الحدود، بل تعبر عن دائرة دلالية بالغة التعقيد تمتد إلى بنية السياق الحاضن لعوالم السرد. إنَّ منهجية العرض تشير بأن مفهوم الصورة السردية لم يتبلور في البحث، فالصورة السردية ليست مجرد مشهد يقع عليه بصر الأديب، فيصوره تصويرًا واقعيًا، ويبرزه في تشخيص معبر، كما ورد في الدراسة السابقة من الاقتصار على مفهومي الصورة المتحركة والصورة الثابتة. بل إنَّ الصَّورة السردية تنتقل مفهومها إلى أبعادٍ أرحب تصل إلى الرمز الدال على معنى إنسانيّ عام كالميل إلى السلم والتعايش أو إلى الدموية والعنف.

بالإضافة للدراسة السابقة، يمكننا أن نلامس صدى لصورة المرأة في ثانيا دراسات عديدة، مثلما نجد في دراسة عائشة الحكمي؛ حيث ضمّنت قضايا المرأة مبحثًا خاصًا معنويًا بـ (صورة علاقة الرجل بالمرأة) مقسمة إياها إلى جوانب متعددة حسب المراحل العمرية لصاحب السيرة، (الحكمي، 2015م، ص: 331) محددة إياها بجملة من المؤشرات هي (الاستمرار والانقطاع، السطحية والعمق)، ويظهر من خلال التناول أن مفهوم الصورة عندها ارتبط بثيمة أساسية لها علاقة بالأثر الذي تركه في الذات الكاتبة حين تتفاعل وجدانيًا مع واقع المرأة، وتُلقي بظلالها على مكونات السرد الأخرى.

وإذن فطبيعة تناول الصورة في الدراسة

والجدير بالذكر أنّ الدراسة السابقة لم تُضمّن مصطلح الصورة في العنوان، إلا أن طبيعة البحث اقتضت الإشارة إلى مفهوم الصورة (في المقدمة) من حيث هي معطى حسيّ وعقليّ يعمق الإدراك لموضوع المرأة في السيرة الذاتية السعودية.

فهل كان حجب لفظ (الصورة) عن العنوان إيذانًا بالتحرج من التصريح به في سياق النص السيري، أم أنّ صورة المرأة في السيرة الذاتية السعودية لم تكن من الوضوح والتفاعل داخل النصوص بشكل يشجع الدراسة على التصريح بلفظ الصورة في صفحة العنوان...؟

ومع ذلك فإن الدراسة تركز على أبعاد صورة المرأة في السيرة الذاتية السعودية، بكثير من التفصيل، محددة موضوعاتها، وروافدها، وعناصرها، ووظائفها، ودلالاتها. ولئن كانت الدراسة السابقة قد باشرت الموضوع دون التنظير المسبق لمفهوم الصورة السردية، إلا أنها اعتمدت التنظير للصورة في حقلها الجماليّ المتعلق بالبناء الفني لمكونات السرد السيري وأبعاده الدلالية المرتبطة بصورة المرأة.

فقد تناولت الدراسة ضمن إطار اللغة التقريرية، مفهوم الصورة المتحركة، والصورة الساكنة، وهو إجراء نقديّ يتجاوب مع مفهوم الصورة من حيث هي معطى يعمق إدراكها وعلاقتها بمكونات الجنس السردى وإمكاناته التصويرية. إلا أن الصورة السردية، لا تقتصر على

السابقة جاءت في سياق جزئي يحاول مقارنة الشكل الذي نما في عقل القارئ، بالنظر إلى فكرة معينة تظهر من خلال سلسلة من الأحداث والمواقف المختلفة التي يتفاعل بها السارد مع امرأة ما، بحيث تعمل هذه الصورة على تشكيل تصور ما في ذهن القارئ، ليصاغ من خلاله عوالم جزئية أسهمت في تشكيل مراحل عمرية معينة في حياة الكاتب، أو في عالم كلي يظهر أثره

الأول: المرأة الذات: وقد أجمعت جميع الدراسات النقدية على ضعف نتاج المرأة في السيرة الذاتية السعودية، أو ربما غيابه تمامًا، ومعظم الدارسين يرجعون السبب إلى الأعراف الاجتماعية التي فرضت على المرأة خصوصية النظرة الاجتماعية لأدبها، وخصوصًا الكتابات التي تسجل فيها اعترافات تتعلق بحياتها الشخصية.

جليًا وبشكل مباشر في إعطاء قسم كبير من الملامح والتفاصيل، التي تخلق عبر الصورة انطباعًا عامًا وتأملاً وجوديًا يتجاوب مع قضايا المرأة بشكل عام، ويسهم بدرجة كبيرة في وضع تصور واضح عنها.

ولعل أكثر الباحثين استفادةً في الموضوع، هو الناقد معجب الزهراني، فقد باشر الموضوع بشيء من التفصيل، مؤكدًا أن كتابات المرأة تحاسب أكثر من غيرها في مجتمع أبوي ذكوري لا يزال يتشبث بمنظومة أفكار متشددة متحيزة ضد المرأة. كما أشار إلى أن كتابة السيرة الذاتية عند المرأة السعودية اتخذت شكل المقالات، وهي لا تزال في طور البدايات، كما أن السير التي بدأت في الصحف توقفت عن الصدور، ولا تبرز لنا كيف كانت صورة المرأة (الزهراني، 2013م، ص: 16).

ولأن دراسة عائشة الحكمي قد باشرت الموضوع في إطار العلاقات الغرامية، بعيداً عن العلاقات الأخرى كالأم والابنة ولذلك فهي قد تميزت عن غيرها من الدراسات في محاولة تنفيذ الصورة من هذه الزاوية، في حين نجده يقتصر على تقصي العلاقات الأسرية لدى الدراسات الأخرى.

من المنصف أن نذكر هنا، أن كتابة السيرة الذاتية قد سجلت غياباً نسبياً لدى المرأة في العالم العربي بشكل عام، فهناك عوامل دينية وثقافية واجتماعية تحكمت في إنتاجه وتلقيه (التميمي، 2015م، ص: 115-178) والرأي السابق يعكس المعيار الأخلاقي والإسقاط الأيديولوجي على أدب المرأة.

وبناءً على ما سبق يمكن أن نخلص إلى أن المرجعية المعرفية لصورة المرأة في السيرة السعودية، تشكلت من خلال سرد الرجل، ولذلك شغلت ثيمة (الغياب / الحضور) كثيراً من الدارسين لقضايا المرأة في السيرة الذاتية، الأمر الذي قادهم إلى فحصها عبر مسارين:

- المملكة، 1417هـ).
- 2- صورة المكان في نقد السيرة الذاتية: الوظائف والأنماط:
- التصور الذي تضعه هذه الدراسة لحدود صورة المكان في السيرة الذاتية، يتحدد من خلال دراسة الحيدري في كتابه (السيرة الذاتية في الأدب السعودي)، حيث عقد فصلاً كاملاً لصورة المكان، وهي الدراسة الوحيدة التي قُدمت في هذا الموضوع.
- في الدراسة السابقة مباحث مفصلة للمكونات السردية جميعها (الزمن/ الشخصية/ المكان)، لكن تقنيات المكان جاءت مقرونةً بمصطلح الصورة، مدركةً لآليات اشتغال المكان السردية عبر الخيال والذاكرة المخترنة أكثر من ارتباطه بالأماكن الواقعية. مؤكدةً على الفرق بين المكان المعاش والمكان الأدبي؛ فالمكان الفعلي «مسافة لها أبعاد هندسية وطوبوغرافية، ويتكون من أشياء محسوسة»، وأما المكان الأدبي فله «أبعاد اجتماعية وثقافية وأيديولوجية تعبر عن موقف الكاتب من المجتمع» (الحيدري، 2003م، ص: 521).
- ومن هنا جاء تقسيم المكان متنوعاً، ومُتوفرًا على أبرز الأشكال والجماليات، التي استنبطها الباحثُ مشيرًا إلى ثلاثة أنماط معروفة، هي المكان الأليف، والمعادي، والمحايد (الحيدري، 2003م، ص: 520). فجاء تناوله لصورة المكان مُجيبًا إلى ثلاثة توجهاتٍ، اعتمدها الأدباءُ في تسجيل
- الثاني: المرأة الموضوع: أغلب الدراسات النقدية التي كشفت عن صورة المرأة في السيرة الذاتية السعودية، وجدت مثورة في سرد الرجل فقط، ولهذا ينطلقُ الدارسُ لها من كونها موضوعًا معالجًا في سيرة الرجل. مما يخول القول بأن موضوع المرأة وصورتها وجهان لعملة واحدة في الأبحاث التي تناولت البنى الموضوعية لقضايا المرأة في السيرة الذاتية السعودية.
- هذا الحضور قد لا يتقاربُ تمامًا مع قيمة صورة المرأة في السيرة الذاتية، إلا أنه لا يتعارض البتة مع منهجية البحث الساعية إلى فحصٍ ينطلقُ من معيار جماليّ، لأنّ الموضوع هو المادة التي يبني عليها صاحب السيرة كلامه، ولكل موضوع إمكاناته الصورية، بحيث تتداخل معها مستويات جمالية أخرى، مرهونةً بالنوع السردية نفسه، ومن خلاله يستطيع المتلقي إدراك دلالات المعنى وتشكله ضمن أداة جامعة بين الشكل والموضوع على نحو ما ظهر في محاولة بسمه القثامي (المرأة في السيرة الذاتية السعودية).
- ومع أنّ المرأة الكاتبة قد شكلت غيابًا في كتابة السيرة الذاتية، إلا أنها قدمت جهودًا تشاطر جهود الرجل في نقد وتحليل السيرة الذاتية السعودية، إلى الحد الذي جعل الحيدري يُؤرّخ نشأة دراسة السيرة الذاتية في الأدب السعودي برسالته العلمية (السيرة الذاتية في الأدب السعودي، 1413هـ)، ورسالة عائشة الحكمي (السيرة الذاتية عند أدباء

للمكان، والأمثلة المرتبطة بهذا النوع متعددة، تستوعب المفهوم الأدبي للمكان محيلة إلى الأنماط الأساسية المحددة التي سعت الدراسة إلى حصرها في: المكان الأليف - المكان المعادي - المكان المحايد. ومن خلال هذا التقسيم، أوجد الحيدري صورتين متضادتين للمكان الواحد، مستدلاً على ذلك بصورة لبنان في سيرة محمد عمر توفيق (أيام في المستشفى)؛ حيث بدت صورة المكان كثيية موحشة معادية، وذلك خلال رحلته للعلاج ووصفه للمستشفى، على حين نجد صورة المكان مشرقة في رحلته الأولى إلى لبنان، ويلاحظ أن صورة المكان المعادي تتسم بالعمق والخصوصية، وهو ما أشار إليه أيضاً في سيرة حسن كتبي (هذه حياتي) في وصفه للسجن؛ حيث جاءت صورة المكان كثيية تدعو للشفقة مقارناً تحوله من المكان الأنيق (المنزل) إلى المكان المعادي (السجن).

أما صورة المكان المحايد، فنجد وصفها بوضوح في سيرة غازي القصيبي (سيرة شعرية)، في وصفه لصدمة الحضارة وإحساسه بالاعتراب في القاهرة، ثم الاعتراب الأكبر بانتقاله إلى أمريكا. (الحيدري، 2003م، ص: 538-539).

هذا المقدار من التحديد الشامل أتاح للناقد التنقيب والتحليل بشكل واسع ومنظم، ليكرس الجهد في الكشف عن صور الأماكن محدداً إياها بجملة من الصور التي يمكن أن نذكرها فيما

مشاعرهم، وهي كالتالي:

الأول: توجه يُعنى بالرصد الجغرافي، وهو ما يعرف بالمكان «الفوتوغرافي» (الناقلي، 1994م، ص: 17). ويُعدّ ذكره في العمل الأدبي عيباً، وقد توفرت هذه الصورة المكانية بكثرة عند حمد الجاسر في سيرته (من سوانح الذكريات)، وعدها الباحث «استطراداً يخرج عن المنهج الذي يجب أن يلتزم به كاتب السيرة الذاتية» (الحيدري، 2003م، ص: 527). ويسميه الباحث «بصورة المكان العلمي»، وهو وصف بأسلوب علمي يميل إلى تقصي الأماكن بدقة وضبط مسمياتها وتصحيح الخطأ الشائع في تسميتها لفظاً وكتابة. وأما التوجّه الثاني؛ فيهتم برصد الجوانب الاجتماعية المرتبطة بالمكان، ويظهر في صورة المكان الارتباط الوثيق بالأديب، وكأنه جزء لا يتجزأ من مشاعره وعواطفه، وتأخذ صورة المكان لدى عبد العزيز الربيع (ذكريات طفل وديع) طابعاً اجتماعياً، وهو ما لوحظ أيضاً لدى الجاسر في وصفه للأماكن اللصيقة به كالبيت والمدرسة، والربيع في وصفه الحرم المدني، حين ينقل لنا الارتباط الوثيق لسكان المدينة بالحرم، فهو جزء لا يتجزأ من مشاعرهم، وعلى هذا النحو يصنف تعلق حسين الزيدان (ذكريات العهود الثلاثة) بالحرم المدني أيضاً؛ فهو يشكل صفحة مهمة في حياته، (الحيدري، 2003م، ص: 522).

التوجّه الثالث: الصورة النفسية والعاطفية

يلي:

وكأنها تُرى «بالعين المجردة».

المكان الشامل: ويحتوي على الأزمنة الثلاثة: التي ذكرها (النبلسي، 1994م، ص: 18)، الماضي والحاضر، والمستقبل في اللحظة النصيَّة الواحدة. تظهرُ هذه الصورةُ الشاملةُ في سيرة ابن عقيل الموحية بشاعرية المكان في ميله إلى محاوره الأماكن والتأمل فيها واستبطان تاريخها، وهو ما يسميه (الحيدري، 2003م، ص: 539) بـ «نفسية المكان»، ليعلق عليه قائلاً: «نلاحظ أن حديث ابن عقيل عن المكان وصورته في مخيلته حديثٌ يتسمُّ بالعاطفة الجياشة الصادقة، وأنه حديثٌ يمتزج فيه المكان بالإنسان». ومن الشواهد الدالة على ذلك «إنني أحنُّ حيناً إلى القرية، ولكنَّ القرية أصبحتُ مدينةً صغيرةً، وانسحبت عنها رويداً ذكرياتُ الماضي» (الحيدري، 2003م، ص: 541). هذا الشاهد جاء في سياق الكشف عن العلاقة بين الإنسان والأماكن الأثيرة يصفها ويتأملها كما أشار الحيدري معلقاً على وصف ابن عقيل. ومن هنا نلاحظ أن كلَّ نمط من الأنماط، قُرِنَ بمثال من سيرة مناسبة له، فتعددت الصور لتعدد الكتاب وتنوع طرقهم في تناول. ويمكننا أن نعدَّ هذه الدراسة خطوةً جيدةً تتناسب مع هذا التناج الضخم من السير الذاتية. ليكون ماثلاً لنظرية الصورة في الرواية. وقد استفادت الدراسة من منهج (باشلار، 1984م) ووصفه الظاهراتي في تحليله للمكان، ولكنها لم تلتزم به

المكان الصوتي: وتبرز جماليته من خلال الصوت، كما ظهر لدى عزيز ضياء (حياتي مع الجوع والحب والحرب)، في تصويره للمكان؛ فهو يمتلك وصفاً متناهيًا في الدقة، ومن زوايا متعددة، حتى إنه يسعى إلى نقل الأصوات التي كانت تتردد في المكان، ومن أمثلة ذلك قوله: «لم يكن هذا هو المكان الوحيد الذي أخذ يعلن عن فتح الباب على السلعة التي يعرضها للبيع، إذ ما هي إلا لحظاتٌ أو دقائقٌ حتى امتلأت ساحة الحراج، ليس بالجمهور الكبير من الناس، وإنما بصيحات هؤلاء الذين يعرضون الأمتعة...» (الحيدري، 2003م، ص: 533). طبيعة الوصف هنا أضفت على المكان حيويَّة أسبغتها الخصوصية الصوتيَّة والصَّخب المصاحب للمكان.

المكان الحيني: كما ظهر في سيرة زاهر الألمي (رحلة الثلاثين عاماً)، حيث وصف مسقط رأسه وصفاً جغرافياً تتخلله مشاعرُ الحنين والشوق بعد انقطاع. يقول الألمي: «وكنت أطل فأرى بالعين المجردة في رجال ألمع جبالا وسهولا كنتُ أتدرجُ في ربوعها وأسرح وأمرح في شغافها ووهادها» (الحيدري، 2003م، ص: 543). هذا الاسترجاع الصوريُّ لذاكرة المكان يُشكل علاقة حميمة مع المكان الأمومي الذي نشأ فيه، وقد علق الحيدري على هذا الوصف مشراً إلى أنَّ شدة الشوق جعلت صورة المكان عالقة في الذاكرة

أثراً عكسياً، بحيث أصبحت شخصيته نائراً على العادات والتقاليد بشكل عام (الحيدري، 2003م، ص: 268).

وكما أشار الحيدري إلى رفض السباعي لبعض التقاليد، أشارت عائشة الحكمي إلى انتقاد عزيز ضياء عادة تقبيل يد الكبير، محيلة إلى قوله: «والعجيب أن الرجال في تلك الأيام لا يسحبون أيديهم...» (الحكمي، 2015م، ص: 349)، مثل هذه التعليقات تؤكد رفضاً تاماً، ومحاولة لتغيير الصورة النمطية التي يراها كاتب السيرة مرسخة في المجتمع.

هذا الرفض التام للعادات، والرغبة الجادة في الخروج عن السائد، دفعت النقاد إلى محاولة تبريرها والكشف عن عوامل ظهورها، وقد ذكرت (الحكمي، 2015م، ص: 350) أن سبب رفض عزيز ضياء عادة تقبيل أيدي كبار السن، أن والدته كانت تعلمه ذلك، وقد شددت عليه يوم الحتان أن يحترم الحاتن لأنه رجل كبير في السن. ولكن في مقابل هذا الانتقاد نجد الباحثة تقابل سلوك عزيز ضياء بسلوك الربيع في لومه لأبناء الجيل الجديد وتمردهم على القيم والتحليل من كل القيود ومنها عدم احترام الكبير، مما يبين أن مثل هذه الانتقادات للعادات والتقاليد السائدة قد تمت معالجتها في سياق الظروف البيئية، وعوامل النشأة التي تحدد شخصية الثائر. وهذا مما يوحي بأن صورة المجتمع والنظرة إليه،

حرفياً، وإنما سارت بمنحى موازٍ له منطلقة من التجارب السيرية ذاتها، دون إقحام أو تعسف في الطرح، لتأخذ بالاعتبار العوامل النفسية والاجتماعية المحيطة بالسرد والسارد.

3- صورة المجتمع السعودي من خلال نقد السيرة الذاتية:

وصف الظواهر الاجتماعية من أكثر الموضوعات التي عني بها النقد، إذ لا تكاد تخلو دراسة نقدية واحدة من عناية واضحة بهذا الجانب المهم، والاستفاضة فيه بالشرح والتحليل وبيان أهميته، وما اندثر من العادات وما بقي وما تطور.

ومن الجدير بالذكر أن جُلَّ الدراسات التي تصدت لهذا الجانب تؤكد تمسك المجتمع السعودي بعاداته وتقاليده على اختلافها بين المناطق، كما تؤكد مشاعر القلق والتوجس من التغيرات التي طرأت على المجتمع، والحنين الدائم إلى الماضي.

لكن موقف أصحاب السير، لم يكن على درجة مماثلة من الحرص والتمسك بالعادات والتقاليد السائدة؛ فقد وجه بعضهم نقداً لاذعاً لعادات المجتمع وسعى إلى تغييرها، كما فعل السباعي فيما نقله عن جدته من أنها كانت تنهى عن كنس البيت وقت خروج المسافرين، وكيف أن مثل هذه المعتقدات الفاسدة، قد ولدت لديه

الحيدري من تحليل في سياق حديثة عن اختلاف مظاهر احتفالات الختان مؤكداً على وجود اختلاف ملحوظ في العادات والتقاليد بين مناطق المملكة الشاسعة، مرجعاً ذلك إلى اختلاف الطبقة الاجتماعية ومؤيداً رأيه بثلاثة نماذج:

الأول: محمد حسن زيدان ويمثل ختان الطبقة المتوسطة (البرجوازية)، التي ينتمي إليها الكثيرون من سكان المدينة.

الثاني: يمثلها عزيز ضياء وهو من أهالي المدينة من الطبقة (الأرستقراطية)، حيث أُعد له سريرٌ مزخرفٌ وأحضرتُ فرقةٌ موسيقيةٌ للاحتفاء بحدث ختانه. وقد أجاد (الحيدري، 2003م، ص: 263) في تحليل مشاعر الكاتب من جهة حصول ارتباط شرطي بين السرير المزخرف ومشاعر الرعب والخوف من الختان. كما أن مشاعر الخوف عنده ارتبطت بسماع الموسيقى العسكرية، التي كانت تصدح وقت دخول الخادمة عليه مسرعة لتخبره أنهم جاءوا.

الثالث: حمد الجاسر ويمثل طبقة الفلاحين، وقد كان ختانه عادياً ليس فيه «بهرج ولا زخرفة ولا احتفال»، ولذلك يُعلق الحيدري عليه قائلاً: «الملاحظ أن أهالي المنطقة الوسطى وبخاصة أهالي القرى والأرياف لا يعطون الختان الاهتمام والاستعداد كما يصنع إخوانهم في الحجاز» ويعلل ذلك بقوله: «ربما فارق المدينة عن القرية له أثره الكبير في التباين» (الحيدري، 2003م، ص: 270)

تختلف من كاتب لآخر.

من المهم - هنا - الوقوف على منهجية النقاد في تناول الظواهر الاجتماعية، ففي مثل هذه الدراسات من البديهي أن يبدأ الباحثون بالاستقراء الدقيق للظواهر، ثم السعي إلى تصنيفها، وتحليلها تبعاً لعوامل الظهور أو التطور، وجميعهم ركزوا على التغيرات التي ظهرت في المجتمع السعودي، وأشاروا إلى علاقة الذات الكاتبة بالثقافة السائدة.

ولئن كان تناول (الحيدري، 2003م) يتسم بإجمال، ثم تفصيل لأبرز ملامح الحياة الاجتماعية، إلا أنه سعى إلى تحليل الظواهر في ظل محيطها الاجتماعي، مُراوِحاً بين التحليل النفسي والتحليل الاجتماعي معاً؛ وهذه إضافة جيدة عمّقت محاولة الناقد في تقصي الظواهر الاجتماعية وإبراز صورة المجتمع في السيرة الذاتية.

على سبيل المثال، نذكر - مثلاً - أنه في سياق حديثه عن أثر المعتقدات على نفسية الكاتب، أشار إلى أهمية هذا الجانب وأدرج شواهد من وصف السباعي وتصويره للباس في البيئة المكية، قائلاً: «هذا الوصف للهيئة قبل نحو تسعين عاماً يعدُّ تاريخاً له أهميته الفائقة لدارسي علم الاجتماع والمهتمين باللباس وتطوره من زمن لآخر (الحيدري، ص: 266).

ومن الأمثلة التي يجدر ذكرها ما ساقه

الحيدري، 2003م) وذكّرت (عائشة الحكمي، 2015م، ص: 383) من استنكار المجتمع السعودي لعادة لبس النظارة، «فلم تكن مألوفة لدى الناس ولا يستعملها إلا كبار السن من الرجال والنساء». هذا الموقف الذهني العام يستند إليه (الزهراني، 2013م) في تسديد سهام النقد للنظرة المحافظة التي يتمتع بها أغلب الناس، ومن وجهة نظره أن هذا الموقف العام كان من المفترض أن يعود إلى مرجعية مشتركة تسوغه وتضمن تحرره من ربقة القديم وبخاصة في أوساط النخب المثقفة التي ينتمي إليها الكتاب بالضرورة، إلا أنه في النهاية يستدرك قائلاً: «لكن هذا ما لا نجد له أثراً قوياً هنا؛ لأنّ الذهنية المحافظة تظل بطبيعتها حذرةً من كلّ جديدٍ قلقه من كل تغيير، وخصوصاً فيما يتعلق بمنظومات الأفكار والقيم الرمزية» (الزهراني، 2013م، ص: 23).

وقد نبّه (الزهراني، 2013م) إلى وجود فروقات واضحة في النظرة المحافظة لدى كتاب السير، مشيراً إلى عددٍ من السير التي تعاملت مع صورة الماضي بواقعية وتجنبت التحليل والنقد إلا في أقلّ المواضع، من هذه السير (رحلة الثلاثين عاماً)، و(حكاية الفتى مفتاح)، و(أي بني)، و(ما لم تقله الوظيفة)، (ذكريات طفل وديع)، و(ذكريات العهود الثلاثة).

2- التمسك بالموثوث والمحافظة عليه، ومن ذلك احتفالات الأعياد التي تفيض بمشاعر

على أن التغيرات التي ظهرت في المجتمع من جهة السلوك السائد، والعادات والتقاليد، وما يتبعها من تسليط الضوء على نظام البيت في الماضي، ولباس كل من الرجل والمرأة، وأوقات الفراغ وكيف يتم قضاؤها داخل وخارج الأسرة، والطرق التربوية المتبعة من الآباء والأمهات إلى غير ذلك من العادات والتقاليد التي تم رصدها وتصنيفها من قبل الباحثين، تظهر بجلاء صورة المجتمع السعودي في السيرة الذاتية، ويمكن ذكر أبرز خصائصها فيما يلي:

1- اختفاء المجتمع التقليدي، وظهور المجتمع المتحضر، وما يتبع ذلك من صراع بين القديم والحديث، لعلّ أبرزها ما ذكره الحيدري عن موقف أهل المدينة من ركوب الدراجات، مُستشهداً بقول عبدالعزيز الربيع: «كان مما يُعاب في المدينة المنورة، لأنّ الناس كانوا ينظرون إلى راكبيها نظرةً تفيضُ بالسخرية والاستخفاف، وكانوا يتهمون راكبيها بالانحطاط وسوء التربية»، كما أنه نقل عن حسين زيدان مبررات هذا الرفض في قوله: «أن آباءهم كانوا يمنعونهم من ركوبها لأنها حصان إبليس» (الحيدري، 2003م، ص: 272).

وبالعودة إلى الدراسات النقدية التي تناولت السير، يمكن الوقوف على مظاهر أخرى، تعبر عن رفض بعض مظاهر التجديد والتحضر في المجتمع، على سبيل المثال ما ذكره عبد الله

ومعجب العدواني، وعائشة الحكمي، أو رجعنا إلى البنية السردية لصورة المكان لدى الحيدري، نجد التحليلات بعضها موجهاً للذات الكاتبة (المؤلف) وتحليل انفعالاتها، وبعضها يسلط الضوء على المتلقي (القارئ)، وهو مدار الفرق بين دراسة وأخرى بالنظر إلى وظيفة الأدب الأساسية.

ومما يظهر في الاتجاه النقدي الأول (الموجه للذات الكاتبة) من ملامح استجابة إيجابية، إخضاع الحكم النقدي لنظرة العقل، والتعليل المفصل المستند إلى قوانين المنطق ومنها قانون السببية، وفي ضوءه فسّر النقاد غياب سرد المرأة في السيرة الذاتية السعودية، وفق ما أشارت إليه عائشة الحكمي حول حساسية قضية المرأة في السيرة الذاتية عند الأدباء، مشيرة إلى أنها شكلت عقبة لدى بعض الكتاب وعلى رأسهم حمزة بوقري، الذي ألمح إلى هذا الموضوع بشكل غير مباشر في سيرته (الحكمي، 2015م، ص: 95). وفي ضوء الباعث الديني والتقاليد الخاطئة فسّرت الباحثة الأسباب التي جعلت الأديب يسقط المرأة من حسابه وهو يدون سيرته، عدا إشارات خاطفة تحيل إلى دور الأم أو الأخت أو الزوجة...، ثم خلصت من ذلك إلى التساؤل التالي: ما الذي يُضير إذا تحدث أديب عن دور زوجته واستقراره الأسري في تنمية إبداعه؟

هذا ما لفتت النظر إليه عائشة الحكمي في

الحب والتكافل الاجتماعي، وقد أوردت (عائشة الحكمي، 2003م، ص: 350) مقارنة العطار بين احتفال الأطفال في نجد والحجاز، وخروجه من ذلك بتشابه بعض المظاهر واختلاف بعضها.

2- صورة الماضي والحنين إلى صفائه ونقائه، مع صعوبة الأوضاع الأمنية والاقتصادية التي عانى منها إنسان هذا العصر، ويتمثل ذلك في عدة أوجه، يمكن الاكتفاء بذكرها فقط طلباً للإيجاز وتجنباً للاستطراد المخجل (القيلات أو الرحلات - الألعاب الشعبية والأغاني والرقصات - صور الحياة في الحارة - الأثاث والأطعمة)، ويمكن مراجعة تفصيل ذلك لدى (الحكمي، 2015م، ص: 356-385).

الحدود المؤطرة لتلقي الصورة في نقد السيرة الذاتية في الأدب السعودي
أ- منهجية التلقي وأساليب التأويل:

يعتمد النقد الأدبي للصورة في سرد السيرة الذاتية تصوراً منهجياً يكشف عن جمالياتها والمنطق المتحكم في تكوينها، لكن دون الاتكاء على المنجز النقدي الذي أوجدها. وهنا لا بد من التساؤل عن منهجية هذا التناول، وعن المرجعيات المعرفية التي يتكئ عليها الباحثون.

ولورجعنا لمعظم الدراسات النقدية التي تناولت البنية الموضوعية لصورة المرأة لدى عدد من الباحثين، أبرزهم بسمة القشامي،

هكذا استطاع النقاد استقصاء ديناميّة الصورة ضمن التكوين الذي يتيح طبيعة الجنس السردية، وطبيعة موضوعها، وهي ديناميّة حيّة ومهمة في تحليل الخطاب الاجتماعي، لأنها تعمل على تجميع عدة صور متراكمة ومتفاوتة من كاتب لآخر. أي بالنظر إلى ما يُطالها من امتداد وتوتر ناتج عن اختلاف الرؤية لدى كتاب السير.

والواضح أنّ هذه الدراسات لا تعتمد توجّهاً محددًا في النقد والتحليل، ولكنها قلّما تلجأ إلى التعميم وإطلاق أحكام غير مُعلّلة أو الاكتفاء بالتنظير دون التطبيق. وإن ظهر صدق التيارات النقدية الجديدة مع مراعاة طبيعة النتاج الأدبي نفسه وخصوصيته البيئية والفنية.

الأمر الذي يجعله مقبولاً ومفيداً في تطوير مناهج الدراسة الأدبية في النقد السعودي. بالتزام منهجية موضوعية تقربه من النقد الإبداعي، والقراءة النقدية التأملية. ذلك أنّ القراءة النقدية الثرية هي التي تُصغي إلى ما يقوله النص دون إقحام فيه أو إسقاط عليه، لأن مهامها تنطلق من السعي إلى فك الرموز الدلالية للنص، وإعادة تركيبها للكشف عن الخفي والقبض على المقموع في ظل سلطة النص والسياق الاجتماعي.

هناك أبعاداً أخرى تتعلق بتلقي صورة المرأة، وهي رؤية لها قيمة نقدية تتصل بطبيعة المتلقي للعمل الأدبي (الاتجاه الثاني المتعلق

تفاوت أصحاب السير في تناول؛ فبعضهم كان حديثه عن المرأة شاملاً مثل بوقري وبعضهم كان مختصراً مثل: (عطار)، وبعض أصحاب السير لم يُشر إلى اسمها، وربما أشار بعضهم إلى كنيّتها، وبعضهم ذكر اسمها صريحاً وهم (السباعي، وبوقري، والقصيبي، وزيدان، وضياء)، مرجعة ذلك إلى طبيعة التقاليد العربية (الحكمي، 2015م، ص: 335).

كما فطن الدارسون إلى أهمية التطبيق في الممارسة النقدية دون الاكتفاء بالأحكام المعمّمة، ليمتد الجهد إلى تفسير المشاهد التصويرية، والمقابلة بين المبدعين، ومحاولة تقسيم وظائف الصورة السردية، بالنظر إلى أبعاد مهمة تتصل بعناصر العمل الفنيّ نفسه (الزمان / المكان / الشخصيات / طبيعة الأحداث / طبيعة النتاج والبيئة)، وهذا ما ظهر جلياً في دراسة (الحيدري، 2003م)، حيث جاءت تقسيمات الصورة عنده مرتبطة بأعمال معينة تم انتقاؤها بعناية، ليتم التناول وفق رؤية نقدية موضوعية يقترن فيها الوصف بالتطبيق، مُعنوناً لكل صورة بعنوان مناسب ينتقي أبرز الكتاب الذين تتجسد لديهم الظاهرة. يمكن التمثيل لذلك بالعناوين التالية: الربيع والطابع الاجتماعي، تعلق زيدان بالمكان وعشقه له، بالخير والارتباط الوجداني بالمكان، ابن عقيل ومحاوره الأماكن وتأملها، الألمي والحنين إلى المكان.

يعلن غيابها التام في قوله: «الموضوعات المتعلقة بالتجارب العاطفية للذات الكاتبة لا أثر لها في هذه الكتابات» (الزهراني، 2013م، ص: 29) مُسوِّغاً ذلك الغياب بأنه نتاج التزام الكاتب بفضائل المجتمع المحافظ الذي ينتمي إليه.

بينما نجد خلاف هذا الرأي، لدى عائشة الحكمي، فهي تقرُّ بوجود جوانبٍ متعددةٍ لعلاقات الرجل العاطفية بالمرأة؛ فهي متباينة الأدوار، ومتعددة الصور. حيث ترجح الحكمي أن هناك عوامل كثيرة تتحكم في العلاقة لعلَّ أبرزها المرحلة العمرية للذات الكاتبة، والمكان الذي يجمعهما، ودرجة العلاقة من حيث إمكانية الانقطاع والاستمرارية، ونوعها من حيث السطحية والعمق، وقد أشارت إلى وجود هذه العلاقات عند كل من (الربيع، وقنديل، والقصيبي، وعطار، وبوقري، وضياء، والمشري). وقد ذكرت الحكمي أن هناك ثلثة من أصحاب السير لم يظهر لديهم تصريحٌ عن أية علاقة بالمرأة مثل: (السباعي، أحمد علي، وصباح، والألمعي، وأبو مدين، وزيدان، ومحمد عمر توفيق) (الحكمي، 2015م، ص: 328). انطلاقاً من هذا التناول، يسفر هذا النقد عن الجانب المعرفي ودوره في تشكيل خصائص الصورة السردية للمرأة في السيرة الذاتية السعودية.

على أنه من المفيد والضروري الإشارة إلى أن هناك من اختطَّ لنفسه منهجاً بين النقد ونقد

بالمتلقي) بالنظر إلى الطبيعة المحافظة للمجتمع السعودي، بحيث نجد صورة المرأة مقتصرةً على العلاقات الأسرية في الغالب، ومنها مكانة الأم العظيمة في ثقافتنا الإسلامية؛ فهي الملهم الأول، والعامل الأساسي للنجاح، لأنَّ برها مفتاح التوفيق والعناية الإلهية، هذا ما أشار إليه معجب الزهراني في سياق حديثه عن الرؤية المحافظة، واختلاف وجهات نظر الكُتَّاب تبعاً لاختلاف ظروف النشأة، لكنَّ الباحث في النهاية يخلص إلى أن هذه النزعة المحافظة وفقت في اكتساب دلالات إنسانية مطلقة مستمدة من إيمان الكُتَّاب وعقيدتهم الإسلامية الراسخة، مُدِّلاً على ذلك بمقطع من سيرة (حكاية الفتى مفتاح) «واجبنا أخلاقياً تجاه الآخرين من الأسرة وبخاصة تلك الأم التي غرست في الابن بذور هذه القيم، وظلَّ وفيها لها باراً بها» (الزهراني، 2013م، ص: 24). وفي ظل الإشارة إلى إلحاح الكاتب على الأثر الإيجابي لدعاء الأم، يمكننا أن نشير هنا إلى الاحتفاء بالأثر العاطفي للنص الأدبي، والاهتمام بالانفعال النفسي الذي يجده السامع. هذا المنجز يظهر أن الناقد قد جمع بين التنظير والتطبيق لرفد الظواهر الفنية بما يؤديها من النصوص المدعمة للقضايا النقدية المطروحة.

وعلى نحو آخر نجد تباين وجهات النظر حول الموضوعات المتعلقة بتجارب الحياة العاطفية للذات الكاتبة؛ فنجد معجب الزهراني

وقد أشارت أغلب الدراسات أن السيرة الذاتية السعودية لها خصوصية اجتماعية لا يمكن تعميمها على الأنواع الأدبية الأخرى من جهة قضية البوح وتحري المصادقية، ولأن الصورة السردية لا تدرك مجردة وإنما تتفاعل مع باقي مكونات النص وبناء عليه يمكن أن نجمل أبرز خصائصها وفقاً لما تم معانيته في الدراسات النقدية التي تناولت الصورة.

1-الصدق الفني:

الصورة السردية ما هي إلا « تجريد جماليّ للواقع، ولكنها ليست ترديداً دقيقاً له» (أنقار، 1994م، ص: 23). لكن النظرة للواقع تتفاوت من كاتب لآخر.

فهل المصادقية هي معيار يحتكم إليه النقاد في الحكم على جماليات الصورة، وهل الصدق الفنيّ يتطلب مطابقة الواقع؟

ما مدى مساحة الحرية التي ينتهجها الأديب السعودي في كتابة السيرة الذاتية؟

وإذا كان الصدق آلية تتحكم في الإنتاج، فما موقف النقاد من ذلك؟

هذه الأسئلة تتطلب فحص المنجز النقدي، ومقارنة مواقف النقاد في ذلك.

أكد الباحثون على أن السرد لا يمثل الواقع، وإنما يعيد إنتاجه، لأن السرد يبني عالمه على التخيل، لكن المساحة في الرواية أوسع؛ وذلك

النقد المتضمن التطبيق العملي في حدود التعامل المباشر مع جماليات الأعمال الأدبية، مع الالتزام بعرض المفاهيم والقضايا المطروحة من زوايا متعددة تعمل على تنفيذ المنجز النقدي¹.

وبصفة عامة فإن الدراسات التي تعرضنا لها لا تظهر اهتماماً بالأطر المنهجية لنقد الصورة، وإنما تكتفي بالرصد والتوثيق على نحو ما رأينا في دراسة بسمة القثامي، أو بالوصف والتحليل كما رأينا في دراسة الحيدري لصورة المكان، وكان ينبغي الاشتغال على التنظير المنهجي للصورة السردية وتبني مفاهيمها المختلفة لأن الدراسات تخصصت في هذا الجانب.

ب-جماليات التلقي وأثرها في تطور نقد السيرة الذاتية في الأدب السعودي:

وهنا نعالج موضوع الصورة في حدّها الجمالي، من جهة طاقتها التعبيرية وحمولتها الفكرية وعلاقة ذلك بخصوصية الجنس الأدبي، مما يستوجب تسليط الضوء على الاستجابة الجمالية للصورة السردية في السيرة الذاتية السعودية، وأوجه تناولها في النقد. وهي وجهة نظر تداولية ذات أثر فعال في الكشف عن أدبية النص، حيث يبرز القارئ كعنصر فاعل في التلقي، حين يضع أصبعه على بؤرة الجمال في النص الأدبي، لأن القارئ كما يقول (إيكو، 2001م) جزء لا يتجزأ من عملية الكتابة، بل إنه بمنزلة قطب الرحا.

1. يظهر هذا المنحى لدى الناقد معجب الزهراني.

ما يخص المرأة، سواء أكانت ذاتاً أم موضوعاً، لذا أُعتبرت صورة المرأة في السيرة الذاتية قاصرةً عن نقل الواقع بصورة صادقة أمينة ولم ينظر إليها نظرة فنية تخيلية، تحول لها الخلق والإبداع والتجديد في بنية النص توافقاً مع طبيعة جنس السيرة، لاسيما من جهة ارتباطها بحياة الكاتب نفسه، وحساسية هذا الموقف في مجتمع مسلم محافظ، وإن كانت المرأة تشاطر الرجل عالمه، وتشغل مساحة لا يُستهان بها في فكره ووجدانه (الزهراني، 2013م، ص: 16).

وعلى العكس من ذلك جاءت صورة المكان، لأن ذاكرته ترتبها إلى الخيال، وهو بدوره يلغي موضوعية الصورة المكانية، أي كونها ظاهرة هندسية، ليظهر دور التخيل الذي يمارس القارئ فيه دوره من خلال اكتشاف جمالية المكان وتذوقها والتمتع والتلذذ بها.

ومع أن الدراسة النقدية الوحيدة (الحيدري، 2003م)، التي باشرت موضوع صورة المكان، قد اختزلته في زاوية محددة تتعلق بعلاقة الشخصية بالمكان، إلا أنها ربطته بمعيار الصدق الفني، ملحة على أهمية هذه الرؤية، ودورها في تشكيل جمالية الصورة، وذلك على نحو ما نجد من الإشادة بتعلق الزيدان بالمكان وعشقه له، وأن حديثه عن المكان يتسم بالصدق الفني « بوصفه بطولته تعمل في داخله، وتدفعه إلى الأمان، وتشعره بالقوة» (الحيدري، 2003م، ص: 526).

نظراً لخصوصية السيرة الذاتية ونزوعها إلى تخليد الذات عن طريق الكتابة.

ومع ذلك نجد لدى بعض الباحثين رغبة للتأكيد على أن سمة المباشرة في السيرة الذاتية، هي صفة ملازمة لها، لكن تسخير الطاقة البلاغية وإسعافاتها التعبيرية، تلازم فيض المشاعر إلى حد يقبل الإبداع في التخيل ويسهم في بلورة خصوصية الصورة السردية في السيرة الذاتية.

وأما عن صورة المرأة، فنجدتها تتجلى في مستويات أسلوبية متباينة، ولكن جميعها في تواصل دائم مع الواقع، مما يخلق سمة بارزة وخاصة مميزة دالة على تفوق نوعي في سيرة عبد الفتاح أبو مدين، ومرد ذلك إلى «نبرة الصدق التي تخترق النص في كل مقاطعه» (الزهراني، 2013م، ص: 13) وهو ما أشار إليه معجب الزهراني في سيرة مدين وفي سيرة غازي القصيبي، وعبدالعزیز مشري.

وخلاصة ما يصل إليه الدرس النقدي في هذا الشأن أن لكل نص سيرى إفرازه الخاص به، وجميعهم يرضخ لبنية الخفاء والتجلي، التي توجه القارئ إلى إدراك الأبعاد التي توجه مسار الصورة وتحد من قدرتها على التحليق. وإذا كان الأمر يتعلق بصورة المرأة فالوضع يكون أكثر تحرراً وأضيق مساحة للتعبير.

وقد أجمع الباحثون على أن هناك نمطاً من التوتر الأسلوبى، نتيجة للقيود المفروضة على كل

حول هذا الفهم يمكننا الاصطلاح على مفهوم (المجاز السردى) أو مفهوم الصورة السردية من حيث هي نقل فني، ومحاولة لتجسيم معطيات الواقع الخارجى بواسطة اللغة. فاللغة كما ذكرت (القثمى، 2014م، ص: 187) هي مَنْ يُجَسِّمُ الخيال ويبرز العاطفة، وهي التي تعطي النص شكله، وتجسد وظائفه من خلال تقديم الشخصيات، ووصف المناظر، والأحداث. يضاف إلى ذلك ما يسفر عنه السرد المشهدي (التصوير المتحرك) من دلالات تكشف عن الانفعالات النفسية للذات الكاتبة وعلاقتها بالحدث من جهة أثره في تشكيل ذاته وتكوينه النفسى، مُدَلِّلة على ذلك بمشهد من سيرة السباعي:

« وقامت أمي إلى علبتها الصغيرة، ثم أسلمتني الجنيه وهي تهب بي: لكن ما تقول: إيش الصنعة إلى بدك تسويها» (القثمى، 2014م، ص: 196) أو في سرد عزيز ضياء حين كشف عن موقف أمه وتعاملها الصارم مع مشاغبات الطفولة، حيث تعمل الصورة المتحركة هنا على رسم تصور واضح عن شخصية الأم ودورها في تعديل سلوكه: « ولا أكاد اقترب منها أو تقترب مني حتى أجد نفسي مشدوداً من أذني بين أصابعها» (القثمى، 2014م، ص: 197). في المشهد الأول أشادت الدراسة السابقة بتوظيف الأفعال لدفع حركة السرد وتشكيل الصورة المتحركة التي

أو كما أشاد ابن عقيل بالمكان وصورته، فحديثه عنه يتسم «بالعاطفة الجياشة الصادقة؛ لأنها ترتبط بذكريات غالية، وأشخاص لهم مكانة في نفسه» (الحيدري، 2003م، ص: 542).

هكذا تكون صورة المكان أداة جمالية لها وظائف محددة وموجهة بالدرجة الأولى إلى القارئ الذي يسعى إلى تفسيرها والبحث في مكوناتها لكي يتوفر على المتعة الحقيقية في التعايش مع النص الأدبي.

2- الطاقة التعبيرية :

تتجلى الطاقة التعبيرية للصورة السردية في السيرة الذاتية، في إطار يخضع لخصائص جنسها الأدبي، من حيث الانطلاق والتوالي والتسلسل والترابط والامتداد، ليتم إخراج الصورة من مستواها اللغوي إلى سياقها السردى، باستحضار جميع الوظائف التي تنوط بها من حيث هي تجسيم وتمثيل وذلك ما يميزها بقدرتها على بعث الحياة في لغة السرد.

وقد أشارت بسمة القثمى إلى إمكانات تخليق صورة المرأة في فضاء المتن السردى وتراتب تفاعلها مع باقى مكوناته. متتبعه جماليات توظيف الصورة في معناها الحسى، الذي يحيل إلى الصورة السينمائية والصورة الدرامية بالمفهوم البلاغى الجديد، في مقابل الصورة الساكنة التي تعتمد على الوصف الثابت (القثمى، 2014م، ص: 193).

يمكن لهذه الخطوة أن تتحقق إلا بوجود قارئ قادر على الارتقاء بالصورة السردية من حقلها اللغوي، إلى حقل ديناميّ يخضع لماهية السرد، وفقاً لهذا المفهوم فسرت جماليات الصورة المكانية في سيرة حسين زيدان، ومبعثها «استخدامه لأسلوب التشخيص، أو التجسيد»، الذي يصور نظرتة للمكان بوصفه بطولية تعتمل في داخله وتدفعه إلى الأمان وتشعره بالقوة (الحيدري، 2003م، ص: 525)، والصورة بهذا المنحى أداة تشكيل تعمل على إحداث تلاحم وجداني بين المكان والشخصيات التي تحل فيه.

و حين يسعى الناقد إلى استجلاء علاقة الصورة بالمدرجات الحسية، التي تشكل العنصر الأساسي الداعم إلى تكوينها، يصبح للون دوراً حاسماً في تجسيد هيئة العناصر المكونة للصورة المكونة، ومعلوم أن تشكيل المكان يعتمد على عالم الألوان والصور والروائح والأشكال واللباس والأثاث وما إلى ذلك من الأشياء الدالة عليه.

ومن المهم الإشارة إلى أن الصورة اللونية المكونة للمكان يصعب عزلها، لأنها تتلبس بالشخصية وبالزمن، ومن ناحية أخرى لأنها تتعلق بالدلالة الكلية للنص السردية. هذا من خلال ما يثبت في البنية السردية من تعبيرات لونية ذات تأثير فاعل، يحيل اللون إلى قوة مؤثرة في المكان.

ويرتكز الوصف والتحليل هنا على ملاحظة

تمكن من التقاط البعد الجسمي في صورته مكتملة يقف القارئ متأملاً لها في وعيها الكامل ووقارها وموقفها المتزن تجاه تربية ابنها، وفي الثاني أشارت إلى لغة الوصف ودورها في تجسيد أبعاد الشخصية بشكل يسهم في رسم صورة ذهنية عن شخصية الأم الحازمة.

وسواء كانت الصورة ساكنة أم متحركة، فإنها في كلتا الحالتين تعطي تصوراً عن طبيعة المكان والأشياء والشخصيات المتفاعلة مع المشاهد، وقد بدت شعيرية المكان واضحة في السيرة الذاتية، من جهة تعلقه بالحيز الذي تجري فيه الأحداث، ومن جهة كونه الأداة الفاعلة في تطوير مسار السرد، ويسهم في تشييد الحبكة.

ذلك أن الصورة في السرد شائعة واسعة بامتداد السرد نفسه، عند هذا الحد لا تبقى الصورة المنتزعة بسيطة جزئية، وإنما تمتد بالنظر إلى السياق النصي، والسياق الاجتماعي، وقواعد الجنس الأدبي، ومنه تتشكل هوية النص، والطاقة اللغوية والبلاغية المكونة له.

على مستوى السياق النصي، والسياق الاجتماعي، وقواعد الجنس الأدبي، أكدت الدراسات النقدية أن عناصر الصورة السردية تُبنى على أساس التخيل، الذي يعمل على خلق الواقع في مستويات أسلوبية متباينة، يمكن استقرارها على مستوى الجملة أولاً، ثم على مستوى السياقين النصي والاجتماعي ثانياً، ولا

الكشف عن ملامح الاستجابة الجمالية، من خلال الوقوف على التصور العام الذي يقف عنده النقد لكلٍ من:

1. صورة المرأة في نقد السيرة الذاتية السعودية.
2. صورة المكان في نقد السيرة الذاتية السعودية.
3. صورة المجتمع السعودي في نقد السيرة الذاتية.

وقد كان الاختيار بناءً على توفر دراسة مستقلة أفردت لصورة المرأة هي دراسة بسمة القثامي (المرأة في السيرة الذاتية السعودية) بالإضافة إلى توفر جملة من الدراسات على مباحث مهمة تناول قضايا المرأة، وملامح صورتها في السيرة الذاتية السعودية.

وقد توفرت دراسة (عبد الله الحيدري، 2003م) على صورة واضحة للمكان، هذا بالإضافة إلى استفادة الباحثين في تناول قضايا المجتمع في السيرة الذاتية ممّا هيأ لهذا البحث الكشف عن صورة المجتمع السعودي من خلال أبحاث نقد السيرة الذاتية.

وفي ضوء تتبع هذا النقد أمكن الوقوف عند مفهوم الصورة السردية في نقد الصورة الذاتية، وبدراسة المصطلحات التي تمّ تداولها في هذا الحقل ظهرت سياتٌ محددةٌ للصورة السردية في السيرة يمكن أن نجملها فيما يلي:

المتلقي وشعوره ومعاناته تجاه الألوان التي يصطبغ بها عالم السرد، ليبدو المكان حميمًا أليفاً أو ومعادياً بصورة موحشة، وهما «الصورتان المتضادتان»، اللتان عبر عنهما الحيدري، حين قابل بين صورة لبنان في زيارتين متفرقتين لمحمد توفيق في سيرته، وذلك في قوله: «إنها لصورة ترتعد لها الأطراف تلك التي يصف فيها محمد عمر توفيق غرفة العمليات بما تحويه من أعطية بيضاء وضمادات وأبخرة التعقيم المتصاعدة في المكان. «ويقالها بصورة أليفة للمدينة نفسها بأنها صورة «جميلة تهش لها النفس». ووفقاً لهذه الملاحظة جاء الحكم على الصورة الأولى (المعادية) أنها داخلية عميقة تتسم بالخصوصية والصدق، في حين أنّ الصورة الثانية خارجية تتسم بالسطحية. (الحيدري، 2003م، ص: 543). وعلى هذا الأساس تغدو الصورة السردية للمكان ذات قيمة فنية عليا، وأداة نقدية فاعلة يمكن من خلالها مقارنة الوظيفة الجمالية في السيرة الذاتية. هذه الظاهرة الفنية جديرة بالبحث والتحليل من خلال نماذج إضافية من سير مختلفة، لكن الحيدري اكتفى بالبحث في سيرة واحدة.

خاتمة :

استقرأ البحثُ جملةً من الدراسات النقدية المتعلقة بالصورة السردية في السيرة الذاتية، بُغيةً

بالوظيفة الجمالية، وأكثر ارتباطاً بالسياق النصي.

رابعاً: اتَّسَمَ التناوُلُ الجماليُّ للسيرة الذاتية، بشيءٍ من التفصيل في البحث عن خصائص اللغة والأسلوب وكلها زوايا تصب في صالح التناول الجمالي للصورة، ويمكن أن تشكل هذه الخبيصة إحدى الركائز الأساسية التي تعتمد عليها أي دراسة تستهدف المنحى الجمالي في النقد. خامساً: اختلفت منهجية التناول تبعاً لاختلاف أهداف الدارسين، وطريقتهم في التناول، وإن كان المنهج التاريخي هو الذي يطغى على معظم الدراسات، ذلك لأن الظواهر العظمية التي تركز عليها أبحاث السيرة الذاتية تتعلق بدراسة الجنس الأدبي، وإشكالية كتابة الذات، وقضايا أخرى ذات صلة بكتابة السيرة الذاتية لعل أبرزها العلاقة بين السيرة الأدبية والرواية، ومراحل تطور كتابة السيرة في الأدب السعودي.

على أننا نلمس تطوراً ملموساً في أدوات النقد، متأثراً بالدراسات النقدية الحديثة، من جهة محددة تتعلق بالنقد الجمالي والتحليل الأسلوبي المعتمد في أحيان كثيرة على التحليل النفسي أو الاجتماعي كما لمسنا عند معجب الزهراني، وعبد الله الحيدري، وإن بدا الحيدري أكثر ميلاً

أولاً: يتعامل النقد مع الصورة بمفهومها الشامل، بوصفها تصوير لغويّ وتعبير فنيّ وتخييل جماليّ، يعبرُ عن خَلْقٍ وإبداعٍ تتشكل من خلاله هيئة أجناسية، من خلالها تتمثل أدبيّة النصّ وشعريته، دون الفصل بين أبعاده الفنيّة من جهتي الشكل والمضمون، ومن خلال هذا الفهم حاول هذا البحث تقديم إضافاتٍ نظريّةٍ وتطبيقية، بالنظر إلى مفهوم الصورة السردية الشامل بشكلٍ منهجيّ دقيقٍ.

ثانياً: يتعامل النقد مع الصورة السردية في ظل مصطلحات نقدية مدروسة، وإن لم يسع إلى بحثها وتوضيحها في ظل تداولها النقدي المرتبط بالصورة السردية، مثل الحديث عن تشكيلات الصورة، وأنماط اشتغالها، الاستعارة الكلية والاستعارة الجزئية، الصورة المتحركة، والصورة الثابتة، اللقطة والمشهد، إلى غير ذلك من المصطلحات النقدية المتداولة في حقل الصورة السردية.

ثالثاً: طريقة التعامل مع النصوص تفرض مقارنة الصورة في سياقها النوعي بطريقة جزئية لا تتصل بالسياق العام للنص هذا فيما يخص صورة المرأة، وأما نقد صورة المكان فيبدو الدرس النقدي أكثر التصاقاً

إلى التحليل النفسي.

ومع قلة الدراسات التي تنزع إلى جماليات تلقي الصورة في السيرة الذاتية، إلا أن هذه المحاولات تظل تحمل ملامح كثيرة للغة نقدية مقبولة، ومألوفة لدى عدد كبير من النقاد، وإن كان تداولها في سياق النقد الروائي أوسع وأشمل.

وقد جاءت الاستجابة الجمالية للصورة السردية في أبحاث نقد الصورة الذاتية إيجابية في أغلب المواضع، وإن ظهر الرفض والاستهجان في بعض المواضع على نحو ما ظهر في تحليل كل من معجب الزهراني وعائشة الحكمي في تعاملهما مع صورة المرأة في السيرة الذاتية، واستهجانها التغييب القصدي لملامح صورة المرأة من قبل بعض كتاب السير. إلا أنه ينبغي الإشارة إلى أن غالبية الأحكام النقدية منطقية ومعللة، لأنها تستند إلى شواهد متنوعة من داخل السير التي تمت دراستها.

وعلى أية حال فإن العناية بالصورة السردية في مجال السيرة الذاتية في الأدب السعودي، باستخلاص القيم الجمالية والفنية للنص، وبتتبع الجهود النقدية المختلفة، كشف لنا مدى التباين والاتفاق في الانطباعات الصادرة عن مختلف النقاد، بناء على تفسيرهم للنصوص في ضوء شروط اجتماعية وثقافية شكلت مكونات نصوص السيرة الذاتية لغويًا وفنيًا ودلاليًا.

المصادر والمراجع:

أولاً/ المراجع العربية:

- آل مريع، أحمد. (2013م). في نظرية السيرة الذاتية (المصطلح، الأنواع، الحقيقة والخيال). منشور ضمن أبحاث كرسي الأدب السعودي، الرياض: جامعة الملك سعود.
- أحمد، غادة مصطفى. (2008م). لغة الفن بين الذاتية والموضوعية، القاهرة: مكتبة الأنجلو إيكو، أمبرتو. (2001م). الأثر المفتوح، ترجمة عبد الرحمن بو علي، اللاذقية: دار الحوار.
- أنقار، محمد. (1994م). بناء الصورة في الرواية الاستعمارية (صورة المغرب في الرواية الاستعمارية). الرباط: مكتبة الإدريسي.
- باشلار، غ. (1984م). جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا. ط.4، بيروت: المؤسسة العامة للدراسات والنشر.
- التميمي، أمل. (2005م). السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- الحكمي، عائشة. (2015م)، السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390-1418هـ). عمان: كنوز المعرفة.
- الحيدري، عبد الله. (2003م). السيرة الذاتية في الأدب السعودي. ط.2، الرياض: دار طويق.
- الحيدري، عبد الله. (2008م). السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية (ببليوجرافيا). جدة: النادي الأدبي الثقافي.
- ريد، هيرت. (1975م). حاضر الفن، ترجمة سمير علي، بغداد: دائرة الشؤون الثقافية.
- الزهراني، معجب. (2013م). السيرة الذاتية في الأدب السعودي، الرياض: كرسي الأدب السعودي بجامعة الملك سعود.
- ستولنيتز، جيروم. (1981م)، النقد الفني: دراسة جمالية وفلسفية، ترجمة فؤاد زكريا. ط.2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عبد الحميد، شاكر. (2001م)، التفضيل الجمالي: دراسة سيكولوجية التذوق الفني، الكويت: سلسلة عالم

- المعرفة.
الغامدي، صالح. (2013م). كتابة الذات: دراسات في السيرة الذاتية، بيروت: المركز الثقافي العربي. ASIN: 9789953685
- القثامي، بسمة. (2014م). المرأة في السيرة الذاتية السعودية. إصدارات المجلة العربية، الرياض، (174)
- الناقلي، شاكرا. (1994م). جماليات المكان في الرواية العربية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ثانياً / المراجع الأجنبية والعربية المترجمة:
- Abdul Hamid, Shaker. (2001). *Aesthetic preference: the study of the psychology of artistic taste*, Kuwait: World of Knowledge Series.
- Ahmed, Ghada Mostafa (2008). *The Language of Art between Objectivity and Subjectivity*, Egyptian Anglo Bookshop.
- Al-Ghamdi, S. (2013). *Studies in the biography*. Beirut: Arab Culture Center. ASIN: 9789953685.
- Al-Haidari, Abdullah. (2003). *Biographies in the Saudi Literature* (2nd ed.). Riyadh: Dar Twaig.
- Al-Haidari, Abdullah. (2008). *Biographies in Saudi Arabia (Bibliography)*. Jeddah: The Cultural Literary Club.
- Al-Hekami, 'Aisha. (2015). *Biographies in the Writings of Saudi Men of Letters during The Boom Time*. (1390-1418H.). Amman: Konooz Al-Ma'erefah.
- Al-Merriyae, Ahmad. (2013). *On the Theory of Biographies (The term, types, truth and imagination)*. King Saud University: Riyadh.
- Al-Nabulsi, Shaker. (1994). *The Aesthetics of the Place in the Arab Novel*. Beirut: The Arab Est. for Studies and Publishing.
- Al-Zahrani, Mu'ajeb. (2013). *Biographies in the Saudi Literature*. Riyadh: Chair of Saudi Literature in King Saud University.
- Angar, Muhammad. (1994). *Constructing the Image in the Imperialist Novel (The Image of Morocco in the Imperialist Novel)*. Rabat: Al-Edrissi Bookshop.
- Asl-Qethami, Basmah. (2014). *Women in Saudi Biographies*. The Arab Magazine Publications, Riyadh, (174).
- Attamimi, Amal. (2005). *Women Biographies in Arab Contemporary Literature*, Beirut: The Arab Cultural Center.
- Bashlaar, G. (1984). *The Aesthetics of the Place*, (translated by: Ghaleb Halsa) (4th ed.). Beirut: The General Est. for Studies and Publishing.
- Eco, U. (2001). *The Open Impact'*, translated by: Bu Ali, A., Lattakia, Dar Al- Hewar.
- Eissawi, A. (1884). *The Psychology of the Superstitions and the Scientific Thinking'*, Beirut: Dar Al- Nahdha.
- Reed, Herbert. (1975). *Contemporary Art: An Introduction to theory of Modern Painting and Sculpture*, translated by: Samir Ali, Baghdad: Department of Culture Affairs.
- Stolentis, Jerome. (1981). *Art of Criticism: An aesthetic and philosophical study*, translated by Fouad Zakaria, Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing.